

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية أصول الدين

في بغداد



السنة الاولى

العدد الاول

مطبعة المعارف - بغداد

١٩٧٥ م - ١٣٩٥ هـ

هيئة تحرير المجلة

د . عناد غزوان اسماعيل - عميد كلية اصول الدين - رئيسا

د . عبدالحسين الفتلي - عضوا

الشيخ موسى جعفر السوداني - عضوا

د . جواد احمد علوش - سكرتير التحرير

المفضليات

بقلم

المستشرق الانكليزي السير

چارلز جيمز لايل

ترجمها وقدم لها وعلق عليها
الدكتور عناد غزوان اسماعيل
استاذ الادب العربي المشارك
في كلية الآداب ، جامعة بغداد
وعميد كلية أصول الدين

- ١ -

المقدمة

تعد المفضليات مصدراً شعرياً ولغوياً مهماً من مصادر الشعر العربي القديم ، ففيها مجموعة أمينة من قصائد الشعر الجاهلي والاسلامي ونظراً للسمعة العلمية الطيبة التي يتمتع بها جامعها المفضل الضبي ، تبوأ مكانة رفيعة في الدراسات الادبية والنقدية عند العرب بالاضافة الى المجموعات الشعرية الاخرى كالاصمعيات والوحشيات والحماسات المعروفة لدارسي الشعر العربي في عصوره الادبية القديمة .

اهتم المستشرقون في اوربا منذ عصر النهضة بدراسة التراث العربي والاسلامي دراسة علمية قائمة على منهج واصول ، وقد اختلفت مناهجهم ونظراتهم في هذا التراث وانقسموا الى فئات متباينة في اهدافها ونزعاتها ودوافعها ولكن الذي يهمننا من هذه الدراسات البحث العلمي الجاد والذي يتسم بالموضوعية والتقويم السديد ، البعيد عن التعصب والهوى . والمستشرق الانكليزي السير چارلز جيمز لايل Sir Charles James Lyall واحد من اولئك المستشرقين الاعلام الذين احبوا العربية وأدبها فشفغوا بها واهتموا برصد آثارها ونشر روائعها الأدبية وحققوا كثيراً من دواوينها الشعرية وترجموها الى لغاتهم فأثرت في الحركة الأدبية والعلمية الاوربية منذ مطلع هذا القرن .

ولد لايل في اليوم التاسع من شهر آذار ، عام ١٨٤٥ في مدينة لندن تعلم في لندن ودخل ال King's College ثم درس في كلية باليول في اكسفورد Balliol College . وعندما اعلنت الحكومة البريطانية عن ترشيح بعض الموظفين للخدمة في الهند في عام ١٨٦٥ قدم لايل للحصول على تلك الوظيفة وفاز بالمكان الاول بين المرشحين لها ، فوصل الهند عام ١٨٦٧ وبقي يشغل مناصب ادارية وقانونية عديدة حتى تقاعد من عمله في الهند في شهر حزيران من عام ١٨٩٨ وقد منح وسام نجمة الهند :

“K.C.S.I = Knight Commander of the Order of the Star of India”

قبل سنة من تقاعده .

وعند عودته الى انكلترا ، عمل سكرتيرا للدائرة الهندية في لندن ، في قسم القانون والعلاقات العامة . وبقي يشغل هذا المنصب لمدة اثني عشر عاما حتى تقاعد عام ١٩١٠ .

شارك لايل في وضع الحجر الاساس لتأسيس مدرسة الدراسات الشرقية في لندن . اشترك في عدة مؤتمرات استشرافية دولية ونظرا لما يتمتع به من مكانة علمية فقد انتخب نائبا للرئيس لثلاثة مؤتمرات استشرافية متوالية : ١٨٩٩ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٨ . كان عضوا بارزا ونشيطا في الجمعية الملكية الآسيوية في لندن وهي الجمعية التي تهتم بالدراسات الاستشرافية وعلى رأسها دراسة اللغة العربية وآدابها والحضارة العربية الاسلامية في عصور تطورها وازدهارها . وبقي يعمل بكل نشاط وهمة في هذه الجمعية حتى وفاته في لندن في اليوم الاول من شهر أيلول ، عام ١٩٢٠ .

درس لايل اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية واللغة العبرية . وخلال مدة اقامته في الهند نشر كتابا عن اللغة الهندستانية في عام ١٨٨٠ وسماه بـ “A Sketch of The Hindostani Language” . كان قد اهتم بدراسة الآداب العربية القديمة وخصوصا الشعر العربي القديم وله في هذا الاختصاص المؤلفات التالية :

- ١ - ترجمات من الشعر العربي القديم - نشره عام ١٨٨٥
"Translations of Ancient Arabic Poetry".
- ٢ - دليل تعريب الاسماء الاسلامية والهندية وقد نشره عام ١٨٨٥ .
"A Guide to the Transliteration of Hindu and Muhammadan Names".

- ٣ - شرح عشر قصائد عربية قديمة ١٨٩١ - ١٨٩٤ .
- ٤ - ديوان عبيد بن الابرص وديوان عامر بن الطفيل العامري / تحقيق وترجمة / نشره عام ١٩١٣ .

- ٥ - المفضليات في مجلدين : تحقيق وترجمة - ١٩٢١ .
- ٦ - شعر عمرو بن قميئة / تحقيق وترجمة / ١٩١٩ .
- وكانت ترجمته للشعر العربي القديم تمتاز بالحس الشعري البارع
فقد احتفظ لايك بأوزانه الاصلية في ترجمته شعرا الى اللغة الانكليزية .
أما أبحاثه الادبية فقد نشر منها :

- ١ - « العلاقة بين الشعر العربي القديم والادب العبراني في العهد القديم » .

The Relation of the Old Arabian Poetry to the Hebrew Literature of the Old Testament."

- وقد نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية في لندن عام ١٩١٤ .
- ٢ - « الشعر العربي القديم مصدرا للمعرفة التاريخية »
"Ancient Arabian Poetry as a Source of Historical Information."

- وقد نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية في لندن عام ١٩١٤ .
- ٣ - « المشاهد التصويرية في الشعر العربي القديم »
"The Pictorial Aspects of Ancient Arabian Poetry."

- وقد نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية في لندن ، عام ١٩١٢ .

وقد ترجمت ' هذه الابحاث القيمة بالاضافة الى مقدماته التي كان يصدرها بها الدواوين والمجموعات الشعرية العربية التي حققها ، الى اللغة العربية وعنوانها بـ « أبحاث في الشعر العربي القديم » وهي معدة للطبع . اعترفت المؤسسات العلمية والجامعية بآثار لايل الاكاديمية وقيمتها الاصلية ، فمنحته شهادات دكتوراه فخرية كثيرة . فحصل على شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة اكسفورد ، وجامعة أدنبرة ، وستراسبورغ . وانتخب زميلا للاكاديمية البريطانية وال King's College في لندن .

نشر لايل المفضليات بشرح أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الانباري وقد علق على نصوصها بمقابلته الدقيقة بين النسخ المتوفرة لديه وقتئذ ، فقد طبعها على نفقة كلية اكسفورد بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت عام ١٩٢٠ ، وكان قد ترجم هذه المجموعة الشعرية القديمة ، وهي نخبة من قصائد الشعراء المقلين في الجاهلية وأوائل الاسلام ، الى اللغة الانكليزية ونشرها في اكسفورد في عام ١٩١٨ .

ترجمت ' مقدمته الانكليزية مع بعض التعليقات التي رأيت انها ضرورية لفهم النص ووجهة نظر المستشرق لايل . . . سيجد القارئ العربي في هذه المقدمة ، على الرغم من قدمها ، بعض الآراء والمناقشات العلمية الموضوعية في البحث عن نشأة المفضليات ، وعدد قصائدها ، وشعرائها ، واصالة الشعر العربي القديم ومناقشة سند الرواية مصدرا مهما ومن مصادر حفظ التراث الشعري العربي القديم ، وهي موضوعات ما تزال تثير كثيرا من الاسئلة في أوساطنا الادبية ، وقد حاولت نقل النص بأمانة ليقف القارئ العربي على حقيقته .

- ٢ -

استمدت « المفضليات » - وهي مجموعة من قصائد الشعر العربي القديم - تسميتها من نسبتها الى جامعها المفضل بن محمد الذي يتنسب الى ضبة . يختلف الضبّي عن غيره من العلماء المسلمين الاوائل في انه لم

- ٨ -

يكن مولى من جنس اجنبي بل كان عربيا صريحا في نسبه ، اذ انه ينتمي الى أصل شريف من بني السيد^(١) ، فقد كان أبوه محمد بن يعلى - كما يذكر ذلك الطبري في تاريخه في أكثر من مكان - حجة في الاحداث التي وقعت في الفتوح العربية على حدود خراسان في الشمال الشرقي من بلاد فارس بين سنة ٣٠ هـ و ٩٠ هـ • وان قبيلة ضبة ، التي ينتمي اليها ، وقسما كبيرا من قبيلة تميم بضمنها رباب (التي تضم ضبة) كانت في الغالب متحدة وقد سكنت في ذلك الاقليم ، في تلك الحقبة الزمنية • وقد كان محمد صاحب الأمر فيها على أغلب الظن • ويبدو من المحتمل جدا أن المفضل كان قد ولد خلال مدة اقامة أبيه في تلك البلاد النائية • وقد عين الحجاج (٧٥ هـ - ٩٥ هـ) جده يعلى حاكما على الري في فارس وبعدها على أصفهان • لا يعرف تأريخ ولادة الضبي • ويبدو أنه قد عاش أكثر حياته في الكوفة وكان قد شغل نفسه - خلال تلك السنين بالدراسات الادبية واللغوية حين كانت الكوفة مركزها وقئذ - •

ويظهر الضبي بأنه من مؤيدي البيت العلوي فقد اشترك ، بعد تأسيس الدولة العباسية في سنة ١٣٢ هـ ، في الثورة التي تزعمها ابراهيم بن عبدالله ابن الحسن (بن الحسن بن علي بن ابي طالب) وهو أخ محمد المعروف بالنفس الزكية ، في سنة ١٤٥ هـ ضد المنصور الخليفة العباسي الثاني ، وكانت نتيجة تلك الثورة اندحار ابراهيم وقله وبسبب اشتراك الضبي فيها فقد اقيد أسيرا الا ان المنصور - كما يروى - قد عفا عنه عندما توسط له

(١) وردت مفضلية رقم (٦٣) لربيعة بن مقيوم (الذي ينتسب هو الآخر الى السيد) وقال مفضليته يمتدح بها مسعود بن سالم بن ابي سلمى بن ربيعة بن زبان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد • ومطلعها :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا

وانظر : بروكلمان / تاريخ الادب العربي / ج ١ ، ص ٧٢ ، ٧٣ من بيني ثعلبة بن السيد بن ضبة •

بذلك أحد أفراد قبيلة ضبة وهو مسيب بن زهير الضبي . وقد عيّن المنصور
بعد ذلك رائدا للادب لابنه محمد الذي صار الخليفة المهدي
(١٥٨هـ - ١٦٩هـ) وخلال تلك الحقبة من تعليمه استطاع المفضل الضبي
من زيارة خراسان . ان تأريخ وفاته غير معلوم ، فان السنوات التي تذكر
بهذا الخصوص مختلفة : من سنة ١٦٤هـ الى ١٦٨هـ وسنة ١٧٠هـ (٢) .

فالكوفة وهي أحد المصرين اللذين احتلها المسلمون قد انشأها ،
الخليفة عمر للسيطرة على سهل وادي الرافدين ، كانت في العصر الأموي
وأوائل الحكم العباسي ، مركزا لجمع وتدوين الشعر الجاهلي ، ذلك
العمل الذي اقترن بالحماس الشديد .

ان كلاً من البصرة والكوفة تقعان على أطراف سهل خصب . وهما
متاخمتان له وخلفهما صحراء مرتفعة ونقية ، ومجاورتان مباشرة لاماكن
قديمة كانت لعدة قرون مسترادا لكثير من القبائل البدوية . والكوفة قريبة
جدا من الحيرة ، عاصمة الملوك اللخمين المعروف ، والتي تقع على مسافة
ثلاثة أميال الى جنوب الكوفة في حين تبعد البصرة بضعة أميال عن الأبله (٣)

(٢) ففي الفهرست ص ٦٩ ان تأريخ الوفاة غير معلوم . وقد وردت
قصص واخبار كثيرة عن المفضل الضبي في كتاب الاغانى . وبعض المعلومات
الخاصة به يمكن الحصول عليها من فلوگل Flugel ص ١٤٢ من كتابه :
Grammatisch Schulen .

(٣) الأبله : من أجل ان يحد الملك خسرو أبرويز تقدم بعض القبائل
العربية نحو المدائن ، فقد عين قيس بن مسعود للسيطرة على الأبله ؛ وهي
مدينة تجارية قديمة على شط العرب ، ليست ببعيدة عن أطراف ما سمي بعد
ذلك بالبصرة . وكان تعيين قيس بن مسعود مشروطا بحفظ السلام على حدود
الصحراء بين القبائل العربية المتنافسة ، وقد وردت كلمة «الأبله» في اللغة
اليونانية The Greek لتعني جزءا من مدينة
البصرة الحديثة انظر :

Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate, P. 47

وقد كانت سوقاً قديمة في مكان التقاء دجلة بالفرات حيث سيطرت على طرق التجارة البرية والنهرية المعروفة وقشذ بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب . وقد كان هذان المركزان (الكوفة والبصرة) مكانا لتجمع الجيوش الاسلامية التي تألفت من قبائل شبه الجزيرة العربية ، استعدادا لنشر لواء الاسلام في الامبراطوريتين المعروفتين ؛ البيزنطية والساسانية والتوغل في الفتوح الى اواسط آسيا خصوصا بعد سقوط الامبراطورية الساسانية وهكذا فان كلاً من الحرب والتجارة ، قد جلبت الى البصرة والكوفة قبائل عربية من أقصى شبه الجزيرة إذ ان عددا كبيرا من رؤساء هذه القبائل قد استوطن في هاتين الحاضرتين بصورة دائمية . وقد صار الاهتمام بدراسة اللغة العربية ، بمفرداتها ، وقواعدها ، ونحوها ، من أبرز اهتمامات القادة المسلمين . فالامام علي الذي جعل الكوفة مقراً له ، يروى^(٤) عنه أنه أول من أكد على ضرورة الاحتفاظ بلغة القرآن الكريم نقية من اللحن الذي بدأ يتسرب الى كلام العرب الفصحاء نتيجة لاختلاطهم عن طريق الفتوح الاسلامية - بالشعوب التي كانت تتكلم اللغة الآرامية في وادي الرافدين . ويعتقد بأن نشأة النحو العربي الاولى التي بناها أبو الاسود الدؤلي نسبة الى « دؤل » وهي فخذ من قبيلة كنانة ، قد تمت بإشراف الخليفة علي . وقد شجع هذا الحافظ على زيادة الاهتمام بهذه الدراسة اذ سرعان ما انتشرت . فأصبحت كل من البصرة والكوفة مركزاً لمدرسة اتسمت بنشاط في البحوث اللغوية والنحوية وأصبحت الحاجة الى الاعتماد على الشعر العربي القديم المحفوظ في صدور الرواة ضرورية في هذا المجال .

ففي العصر الجاهلي كانت الحيرة (المتاخمة للكوفة) ملتقى عدد كبير من الشعراء الذين نظموا قصائدهم في مدح الملوك اللخمين ، ويروى

(٤) الأنباري ، نزهة الالباء ، ص ٣ - ٤ .

إن هناك مجلدا قد ضم بعض الاعمال الشعرية لعدد من الشعراء المشهورين
وخصوصا القصائد التي نظمت في مدح النعمان (آخر ملوك الحيرة)
وأسلافه اللخمين قد احتفظت به أسرة الامراء اللخمين وقد وصل الى
يد مروان من البيت الاموي (٥) .

لذلك فانه من الطبيعي ان يكون البحث عن الشعر العربي القديم
(روايته وتدوينه) من الظواهر البارزة في الكوفة (دون البصرة) .
وعلى الرغم من كل ذلك فقد بقيت البصرة والكوفة مكانا لتطور النحو
العربي والدراسات اللغوية والمعجمية التي امتازت بالجهد والفاعلية ،
فنشأت منافسة بين مدرستي البصرة والكوفة . كان من نتائجها ان بدأت
كل مدرسة بنقد منهجية المدرسة الاخرى بالاضافة الى اشاعة القصص
والاخبار التي كانت تقلل من شأن السمعة العلمية لكل واحدة منهما .
وأخيراً ظهرت مدرسة بغداد في أوائل العصر العباسي . اذ أنشئت على
أسس تبتك. المدرستين - البصرة والكوفة - وان كانت تميل الى منهجية
مدرسة البصرة أكثر من منافستها الكوفة .

والمفضل واحداً من علماء مدرسة الكوفة ، كان رأساً بلا منازع
وقد اقترن اسمه ، كخصمه حماد بلقب « الراوية » (٦) والذي يعني انه مطلع

(٥) ان هذه العبارة مقتبسة عن محمد بن سلام ، وقد ظهرت في مقدمة
شرح المروزقي للمفضليات كما ورد ذكرها ايضا عند السيوطي في كتابه :
المزهر ج ١ ، ١٢١ و ج ٢ : ٢٣٧ . ولا يوجد فيها شيء بعيد الاحتمال .
فالحيرة كانت مركزاً للكتابة العربية . ويروى ان اى شخص كان يعرف
الكتابة فى شبه الجزيرة العربية ، يعتقد انه تعلمها بواسطة شخص ما في
الحيرة علما أن أقدم نص عربي مكتوب يعود الى سنة ٣٢٨م وهو النص
الموجود على قبر احد ملوك اللخمين ، بالاضافة الى ذلك فان هنداً أرملة
الشاعر عدي وابنة الملك النعمان ، كانت تعيش في الحيرة حين فتحها
المسلمون سنة ١٢ هـ (انظر الاغانى ، ج ١٤ ص ١٤١) .

(٦) « راوية » صيغة مبالغة لكلمة « راوي » مثل كلمة « علامة »
« لعلام » و « نسابة » ل « نساب » .

على مصادر واسعة للشعر العربي القديم ويستطيع روايته .

والروايات التي تروى عنه تظهره بأنه عالم ثبت وراوية ثقة لأيام العرب وأحداثها ، استطاع ان يترفع عن معاصره حماد . ان حماداً من أصل فارسي وقد اتهم بأنه كان يخلق قصائد من نظمه ويدخلها ضمن القصائد القديمة ويرويها على انها لشعراء العصر الجاهلي وانه كان يتحلل القصائد الكثيرة وينسبها الى الشعراء القدامى . ان كثيراً من الاخبار والروايات (وان كان عدد كبير منها لاشك مختلفاً مشكوكاً في صحته) تروى عنه ، كما يظهر ذلك في كتاب الاغاني^(٧) ج ٥ ص (١٦٤-١٧٥) . يذكر بن خلكان ان حماداً قد ولد في سنة ٩٥ هـ وتوفي سنة ١٥٥ هـ وبعضهم يقول انه قد عاش حتى خلافة المهدي في سنة ١٥٨ هـ وصاحب

وكلمة « راوى » « وجمعها رواة » والتي تعنى في الاصل الجمل الذي يحمل قراب الماء ، هى مصطلح أدبي يطلق على الشخص الذى يستطيع حفظ شعر شاعر ، عن ظهر قلب وبذلك فانه يخلده في ذاكرة الآخرين .

(٧) ابو القاسم حماد بن سabor بن المبارك بن عبيد وكان سabor يكنى أبا ليلي من سبي الديلم سباه ابن عروة بن زيد الخيل ووهبه لابنته يخدمها خمسين سنة ثم ماتت فبيع بمائتي درهم فاشتراه عامر بن مضر الشيباني واعتقه وقيل ان اسم أبي ليلي ميسرة . وزعم ان حمادا مولى بني شيبان .

في الاغاني (ج - ٥ ص ١٧١) رواية غريبة ومستحيلة بخصوص حماد وهي : « كان حماد الراوية في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الانصار فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه . ثم طلب الادب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه فبلغ في العلم ما بلغ » . وكان يحفظ عن ظهر قلب عددا كبيرا من القصائد والمقطعات من شعر الجاهلية كان قد حفظها عن الرواة . وعندما مات حماد رثاه العالم والشاعر الكوفي ابن كناسة (١٢٣ - ٢٠٧) الذي جمع شعر قبيلة أسد (انظر مقدمة ديوان عبيد ص ٩ بتحقيق لایل) وانظر الفهرست ص ٩٢ : الابيات :

أبعدت من نومك الفرار فما جاوزت حتى انتهى بك القدر
لو كان ينجي من الردى حذر نجاك مما أصابك الحذر
يرحمك الله من أخ يابا القاسم ما في صفاته كدر
فهكذا يفسد الزمان ويفنى العلم منه ويدرس الاثر

الفهرست يعطي سنة ٧٥ هـ تاريخاً لميلاده وسنة ١٥٦ هـ تاريخاً لوفاته .
ان هذه التواريخ تبين ان حياته كانت متمصرة مع حياة المفضل وان الكوفة
كانت مقراً له ايضاً . وانا سنعود لحماة فيما بعد عندما نناقش السؤال
المتعلق بصحة واصالة الشعر الجاهلي .

ان قصة تأليف المفضليات كما يرويها ابو علي القالي عن ابي عكرمة
الضبي على الوجه التالي (٨) :

مرّ أبو جعفر المنصور بالمهدي وهو ينشد المفضل قصيدة المسيب (٩)

التي أولها :

أَرَحَلْتُ من سلمى بغير مَتَاعٍ قبل العَطَاسِ ورُعْتَهَا بوَدَاعٍ
فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعها ، ثم صار
الى مجلس له وأمر باحضارهما ، فحدث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة
المسيب واستحسانه اياها ، وقال له : لو عمدت الى اشعار الشعراء المقلين
واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال لكان ذلك صواباً ! ففعل المفضل
بنصيحة الخليفة وكانت المفضليات نتيجة لذلك (١٠) .

(٨) امالي ، ذيل ، ص ١٣١ .

(٩) هو المسيب بن علس كما في المفضليات طبع أوربا ص ٩١ .

(١٠) ويروي أبو الفرج الاصفهاني قصة اخرى تختلف عن هذه
القصة في كتابه « مقاتل الطالبين » - طبعة طهران ، ص ١١٩ في الحاشية :
قال المفضل الضبي « كان ابراهيم بن عبدالله بن الحسن متوارياً عندي ،
فكنت أخرج وأتركه ، فقال لي : انك اذا خرجت ضاق صدري ، فأخرج اليّ
شيئاً من كتبك اتفرج به ، فأخرجت اليه كتباً من الشعر ، فاخترت منها
السبعين قصيدة التي صدرت بها اختيار الشعراء ثم اتهمت عليها باقى
الكتاب فصار عدد القصائد (١٢٠) قصيدة . تحقيق السيد احمد صفر .
ط . دار احياء الكتب العربية - القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

ان تاريخ كتاب مقاتل الطالبين هو سنة ٣١٣ هـ .
وترد هذه الرواية في شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ط ٣ ،
بيروت ، ص ٤١٧ على الوجه التالي :

أما بالنسبة للقالي^(١١) فيروي عن أبي الحسن علي بن سليمان
الأخفش^(١٢) عن أبي جعفر محمد بن الليث الأصفهاني قال : أُملي علينا
أبو عكرمة الضبي المفضليات من أولها إلى آخرها . وادعى أبو عكرمة بأن
المفضل أخرج منها ثمانين^(١٣) قصيدة للمهدي ، وقرئت بعد علي الأصمعي
فصارت مئة وعشرين . وأضاف الأخفش أن نعلباً النحوي (٢٠٠-٢٩١ هـ)
قد أخبره بأن أبا العالية الانطاكي ، والسدري ، وعافية بن شبيب - وهؤلاء
كلهم بصريون من أصحاب الأصمعي - أخبروه أنهم قرأوا عليه (علي
استاذهم الأصمعي) المفضليات ثم استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر
خيار شعره ، وضموه إلى المفضليات وسألوه عما فيه مما أشكل عليهم من
معاني الشعر وغريبه فكثرت جداً .

من الضروري التأكد من صحة هذه العبارة « فكثرت جداً » .
لأنها لو كانت صحيحة فإن أقل من ثلثي المجموعة (المفضليات) يعود في
سنده إلى المفضل .

في مقدمتنا لشرح المفضليات ، بين أبو محمد القاسم الانباري (المتوفى
سنة ٣٠٤ هـ) أنه قد أخذ أصل شرحه من املاء عامر بن عمران ابن أبي
عكرمة الضبي^(١٤) الذي رأى أن مصدر هذه المجموعة كلها هو المفضل .
وذكر أبو عكرمة أنه أخذ هذه القصائد مباشرة عن أبي عبدالله محمد .

« عن المفضل الضبي : . . . فأخرجت إليه كتباً من الشعر فاختر منها
القصائد السبعين التي صدرت بها كتاب المفضليات ثم أتممت عليها باقي
الكتاب . »

(١١) ذيل الامالي ، ص ١٣١ .

(١٢) الاخفش توفي سنة ٣١٥ هـ .

(١٣) في مخطوطة برلين - شرح المرزوقي على المفضليات الكلمة هي

« ثلاثون » بدلا من « ثمانين » وهي من أخطاء النساخ السهلة .

(١٤) ان التواريخ الدقيقة المضبوطة غير معروفة .

ابن الاعرابي (المتوفى سنة ٢٣٠هـ أو ٢٣١هـ) وهو ربيب^(١٥) المفضل
(المتوفى سنة ١٧٠هـ) راويته . وفي هذه المجموعة أربع قصائد فقط
هي : (رقم ٣ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩)^(١٦) صرح الانباري بأنه لم يأخذها عن

(١٥) « وكان يذكر أنه ربيب المفضل كانت امه تحته » الفهرست ،
ابن النديم ، ص ١٠٩ .
(١٦)

قصيدة رقم ٣ :

وهي للكلحبة (هبيرة بن عبد مناف) ومطلعها :
تسائلني بنو جشم بن بكر
أغراء العرازة أم بهيم
وهي مؤلفة من خمسة أبيات .
وجاء في مقدمتها « ولم يروها أبو عكرمة ورواها أحمد وغيره » . ص
٢٤ شرح المفضليات / المترجم

قصيدة رقم ١٣ :

قال رجل من عبد القيس حليف لبني شيبان : « رواها أحمد وغيره
ولم يروها أبو عكرمة » : قال هذه القصيدة قالها يزيد بن سنان بن أبي
حارثة في قتله أبا عمرو بن حمزة القيني
وهي مؤلفة من ثمانية أبيات ومطلعها :
لما ان رأيت بني حنيفة
عرفت شنائتي فيهم و وترى
ص ١٢١ - ١٢٢ / المترجم

قصيدة رقم ١٦ :

وقال المرار بن منقذ . . ولم يروها أبو عكرمة . ورواها أحمد
ورواها ثعلب وغيرهما وهي مؤلفة من خمسة وتسعين بيتا ومطلعها :
عجب خولة اذ تنكرني
أم رأت خولة شيخاً قد كبر
ص ١٤٢ - ١٥٩ .

قصيدة رقم ١٩ :

وقال عبدالله بن سلمة الغامدي
« ولم يروها أبو عكرمة ورواها أحمد بن عبيد والعبيدي وغيرهما »
وهي مؤلفة من أربعة عشر بيتا ومطلعها :
لمن الديار بتولع فيبوس
فبياض ربطة غير ذات أنيس
ص ١٩٠ - ١٩٤ / المترجم

أبي عكرمة ، بل أخذها عن أبي جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح والذي هو نفسه من مستمعي ابن الأعرابي . وبالإضافة الى هذه القصائد الأربع فهناك قصيدتان أخريان هما (رقم ٣٠ ، و ٣٢) (١٧) جاء في شرحهما أنهما مأخوذتان عن أحمد كمصدر رئيس لتفسيرهما ، وليس عن أبي عكرمة . ومن الممكن ضم هاتين القصيدتين (وهما مفقودتان من نص المرزوقي على شرح الفضليات) الى تلك القصائد التي تقتقر الى شهادة أبي عكرمة في كونها أصيلة ولكنهما أيضا من القصائد التي يستشهد بها أحمد على أنهما صادرتان عن ابن الأعرابي .

(١٧) قصيدة رقم ٣٠ : من ص ٣١٥ - ٣٢٠ .

وهي قصيدة عبد يغوث بن وقاص الحارثي وهي مؤلفة من عشرين بيتا ومطلعها :

ألا لا تلوماني كفي اللوم ما بيا
وما لكما في اللوم خير ولا ليا

وقد وردت اشارات الى أحمد في شرح البيت التاسع :

« أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا

فان أخاكم لم يكن من بوائيا ،

... قال أحمد أي لم يكن أخوكم نظيرا لي فأكون بواء له ،

ص ٣١٧ .

ووردت الإشارة الأخرى الى أحمد في شرح البيت الثاني عشر ص ٣١٨

« وتضحك مني شيخة ... »

« قال أحمد الأسير المأسور نقل من مفعول الى فعيل كما تقول

مقتول وقتيل ومذبوح وذبيح »

(في حين يعدها الأصمعي مؤلفة من اثني عشر بيتا . قال الأصمعي :

« الى ههنا سمت من هذه القصيدة ولم أسمع بقيتها » تعليقا على البيت الثاني

عشر وهو :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا

قصيدة رقم ٣٢ : ص ٣٢٧ - ٣٣١

وقال الحارث بن وعلّة الجرّمي . . . وهي مؤلفة من أحد عشر بيتاً

ومطلعها :

فدى لكما - رجليّ أمي وخالتي غداة الكلاب اذا تحزّز الدوابر

وقد وردت الإشارة الى أحمد في ص ٣٢٨ . . . قال أحمد : ويقال إن

هذه القصيدة لعابس بن الحصين أحد بني 'قدامة بن جرم بن ربان' ، وفي

ص ٣٣٠ تعليقا وشرحاً على البيت العاشر وهو :

كيف نستطيع اذن تفسير مثل تلك العبارة التي تنسب الى ابي عكرمة
بوساطة الاخفش ؟ اذا كانت كل قصائد المجموعة المثة والعشرين قد نظر
اليها أبو عكرمة على أنها برواية ابن الاعرابي ؟ كانت بين ابن الاعرابي ،
وهو أكر علماء مدرسة الكوفة شهرة ، والاصمعي الذي يتبوأ المكانة ذاتها
في مدرسة البصرة ، معارضة حادة شديدة بين أنصار هذين الكرسيين في
العلم والحديث .

ويبدو من المحتمل جدا أن ابن الاعرابي كان قد قبل عمل عمه
(زوج امه) واستأذه ديوان شعر ثلثه صادران عن المفضل والثلث الباقي
من المدرسة المنافسة له في البصرة والاحتمال ذاته قد يرد أيضا ذلك ان
شرح الانباري يخلو من الاشارة التي كان بالامكان اثباتها بخصوص العبارة
التي تنسب الى ابي عكرمة بوساطة الاخفش لو كان الانباري على علم بها
هذا من جهة ومن جهة أخرى كيف استطاع الانباري ان يقرأ هذه القصائد
مع استأذه ابي عكرمة دون ان يسمع بهذه القصة ؟ (١٨) .

يذكرني بالرحم بيني وبينه وقد كان في نهد وجرم تدابر
قال أحمد : تدابر تقاطع وتباعد وتعاد . يقال : تدابر القوم اذا
تعادوا وهو رجل مدابر .

(١٨) قال ابو محمد القاسم بن محمد بن بشار الانباري : أملى علينا
عامر بن عمران ابو عكرمة الضبّي هذه القصائد المختارة المنسوبة الى
المفضل بن محمد الضبّي املاء مجلسا مجلسا من اولها الى آخرها وذكر
انه أخذها عن ابي عبدالله محمد بن زياد الاعرابي . وذكر أنه أخذها عن
المفضل الضبّي . قال ابو محمد وكنت أسأل أبا عمرو بNDAR الكرخي ،
وأبا بكر العبدى ، وأبا عبدالله محمد بن رستم ، والطوسي وغيرهم عن
الشيء بعد الشيء منها فيزيدونني على رواية ابي عكرمة البيت والتفسير
وانا اذكر ذلك في موضعه ان شاء الله . فلما فرغنا منها صرت الى ابي
جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح فقرأتها من اولها الى آخرها شعرها وغريبها
فأمكر على ابي عكرمة أشياء أنا مبينها في مواضعها ومسند الى ابي جعفر
ما قسر وروى في موضعه . وعمود الكتاب على نسق ابي عكرمة وروايته .
قال ابو بكر بن الانباري قال ابي وحدت أن ابا جعفر المنصور تقدم الى
المفضل في اختيار قصائد للمهدي فاختار له هذه القصائد فلذلك نسبت
الى المفضل !! مقدمة / المفضليات بشرح ابي محمد القاسم بن محمد بن
بشار الانباري ، لايل ، بيروت / ١٩٢٠ ص ١ - المترجم .

كتاب الفهرست لابن النديم (تاريخ ٣٧٧) يعرف (ص ٦٨) نسخة واحدة فقط منقحة للمفضليات صادرة عن ابن الاعرابي وتحتوي على ثمان وعشرين ومئة قصيدة (١٢٨)(١٩) ، قد تكون هذه هي النسخة التي بين ايدينا : فابن النديم لا يعرف اي شيء بخصوص الاضافات الى النص الاصلي والتي يظن بانها من صنع مدرسة الاصمعي . ومن جهة اخرى فان الاصمعي (١٢٢-٢١٣هـ) نفسه قد جمع بعض القصائد القديمة عرفت بالاصمعيات (نشرها الدكتور - ألفرد في سنة ١٩٠٢ Dr. Ahlwardt ومن الغريب جداً ان يكون الاصمعي قد اضاف مثل هذا العدد الوفير من القصائد الى مجموعة المفضل وحذفه من مجموعته المختارة والتي تحتوي على سبع وسبعين قطعة فقط . وبالنسبة للاصمعيات يقول مؤلف الفهرست (٢٠) (ص ٥٦) بانها « ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها » .

لهذه الاسباب يبدو لنا ان قبول عبارة الاخفش مسألة مشكوك فيها . ومهما يكن من أمر ، فان القضية بحد ذاتها لا تقبل حلاً معيناً ، اما ما يتعلق باصالة القصائد ونسبتها ، فان مكانة الاصمعي فيصلاً في مثل هذه الامور ، غالباً ما تبوأ مركزاً رفيعاً كمكانة المفضل بهذا الخصوص .

دعنا الآن تناقش قضية أصالة الشعر العربي القديم الذي وصلنا عن العصر الجاهلي بين المفضل ومعاصره حماد فالمقطع التالي (٢١) الذي يتضمن أكثر الآراء جدة وتفصيلاً ضد حماد غالباً ما يستشهد به .

(١٩) « . . . وللمهدي عمل الاشعار المختارة المسماة المفضليات وهي مئة وثمان وعشرون قصيدة . وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه والصحيحة التي رواها عنه ابن الاعرابي » .

(٢٠) « . . . وعمل الاصمعي قطعة كبيرة من اشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها » .

(٢١) عاش ابو الفرج الاصفهاني من ٢٨٤هـ - ٣٥٦هـ .

• أخبرني محمد بن خلف وكيع (القاضي المتوفى سنة ٣٠٦ هـ)
قال : سمعت أحمد بن الحارث الخزار (٢٢) (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ أو
٢٥٨ هـ) يقول سمعت ابن الاعرابي (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) يقول سمعت
المفضل الضبي (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) يقول : « قد سلط على الشعر من
حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً » • ف قيل له : « وكيف ذلك ؟ »
أخطيء في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فان أهل العلم
يردون من أخطأ الى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب
وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به
مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط
اشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد ، وابن ذلك ! (٢٣)

ان قول المفضل هذا ، كما يظهر ، قد روي عن طريق ثلاثة مصادر
(وكيع • الخزار • ابن الاعرابي) ومن المحتمل ان شيئاً ما قد دخله عن
طريق هذه الرواية • ولكننا لو اخذنا هذا القول على انه يمثل المفضل
تماماً ، فالتا يجب الا ننسى بان حماداً (ربما كان اصغر سناً منه) كان
متعاصراً للمفضل • لاشك ان المفضل نفسه عالم حجة وثبت وهو الذي
يستطيع تمييز القصائد المتحولة عن غيرها باستخدامه بعض الاختبارات
الضرورية ، وان الرواة العرب ، ومنهم حماد الذي اتهم بانه قد افسد كثيراً
من الشعر ، قادرون على الافصاح عن مصادر اشعارهم ونقلها الى المفضل
قبل ان يتسرب اليها الفساد • وحتى لو قدر لنا الاعتقاد بان القول عن
الانتحال هو من حيث المبدأ قول صحيح فان هذا الاعتقاد يزيد على ذلك ، بان
اضافات حماد كانت منصبية كلياً على لغة وعاطفة الشاعر الاصيل لدرجة
يتعذر فيها تمييز تلك الزيادات عن الاصل ، واذا كان الامر كذلك ، كيف

(٢٢) ويروي « الخراز » • الاغانى ، ج ٦ - ص ٨٩ •

(٢٣) الاغانى ، ج ٦ ص ٨٩ •

اذن يمكن تبيان تلك الزيادات بانها منتحلة ، الا عند من يعرف القصيدة
فى طبيعتها الاولى قبل ان يتسرب اليها الانتحال او الفساد (الزيادة) ؟ ومن
يستطيع معرفة ذلك ان لم يكن المفضل نفسه ؟ •

ان المقطع التالي فى كتاب الاغانى^(٢٤) ربما نستطيع عده مثالا نموذجيا
للاساءة ضد حماد فى تعامله مع قصيدة قديمة • ان سلسلة الرواية التى
ذكرها ابو الفرج طويلة جدا ولكنها فى الظاهر موثوقة وهذه هي القصة :
« انهم كانوا فى دار امير المؤمنين المهدي عيساباذ^(٢٦) وقد اجتمع فيها عدة
من الرواة والعلماء بايام العرب وآدابها واشعارها ولغاتها اذ خرج بعض
اصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الرواية فدخل ، فمكث ملياً ثم
خرج اليها ومعه حماد والمفضل جميعاً وقد بان فى وجه حماد الانكار
والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ثم خرج حسين الخادم معهما ،
فقال : يا معشر من حضر من اهل العلم : ان امير المؤمنين يعلمكم أنه قد
وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته
لزيادته فى اشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً
لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد ان يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من
حماد ، ومن اراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل ، فسألنا عن السبب
فأخبرنا ان المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده : اني رأيت زهير بن أبي

(٢٤) الاغانى ، ج ٦ ، ص ٩٠ ، ٩١ •

(٢٥) « أخبرني رضوان بن أحمد الصيدلاني قال : حدثنا يوسف
ابن ابراهيم ، قال : حدثني أبو اسحاق ابراهيم بن المهدي ، قال : حدثني
السعيدى الراوية وابو اياد المؤدب - وكان مؤدبى ثم أدب المعتصم بعد
ذلك وقد تعالت سنه - وحدثني بنحو من ذلك عبدالله بن مالك وسعيد بن
سكلم وحدثني به ابن غزالة ايضاً واففقوا عليه : « ج ٦ ، ص ٨٩ •

(٢٦) عيساباذ - أي عمارة عيسى • لان كلمة (باذ) فارسية
معناها عمارة ، وهذه محلة كانت شرقي بغداد ومنسوبة الى عيسى بن المهدي
وكانت اقطاعاً له • وبها مات موسى بن المهدي بن الهادي ، وبها بنى المهدي
قصره الذى سماه قصر السلام •

سلمى افتح قصيدته بأن قال :
دعْ ذا وعدَ القول في هرم

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له
الفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً إلا اني توهمته كان يفكر
في قول يقوله ، أو يُروى في ان يقول شعراً فعدل عنه الى مدح هرم
وقال دع ذا ، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال دع ذا ، اي
ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول في هرم ؟ فأمسك عنه . ثم دعا بحماد
فسأله عن مثل ما سأل عنه الفضل ، فقال ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ؟
قال فكيف قال ؟ فأنشده :

لن الديار بقنة الحجر أقوين مذّ حجج ومذ دهر
قصر بئدفع النجائب من ضفوى أولات الضمّال والبدر
دع ذا وعدَ القول في هرم خير الكهول وسيد الحضّر

قال : فأطرق المهدي ساعة ؟ ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير
المؤمنين عنك خبر لا بد من استخلافك عليه ، ثم أستخلفه بأيمان البيعة وكل
يسر محرّجة ليصدقته عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له بما توثق
منه . قال اصدقني عن حال هذه الايات ومن أضافها الى زهير ؟ فأقر له
حيث أنه قائلها ؟ فأمر فيه وفي الفضل بما أمر به من شهرة أمرهما
وكشفه .

ان هذه القصة جديرة بالملاحظة والتدقيق فانها تذكر ان المهدي
خليفة وقد وردت هذه الاشارة على لسان المتحدثين في القصة من جهة
ولأن القصر بعباسا قد بناه المهدي نفسه بعد مجيئه الى الخلافة من جهة
اخرى وانه من المشكوك فيه ان يكون حماد قد عاش حتى سنة ١٥٨هـ
وهي السنة التي جاء بها المهدي الى الحكم . فقد ذكر كل من ابن خلكان
وابن النديم على التسوالي بان حماداً قد توفي في ١٥٥هـ او
١٥٦هـ بالاضافة الى ذلك ان الايات التي قيل فيها بان حماداً قد اضافها

الى قصيدة زهير تتضمن وصفاً عادياً • علماً أن مئات من القصائد الجاهلية تبدأ بمثل هذا الاستهلال يمكن الرجوع اليها في المجموعات الشعرية القديمة ، بيد ان الفائدة المتوخاة من ذكر اسماء الاماكن - في تلك الابيات تجلى بانها تحدد البلد الذي ينتمي اليه الشاعر من خلال تلك الاسماء والاماكن ، لذلك فان اضافة بضعة ابيات لقطعة مقتضبة لزهير تؤلف جزءاً من مقدمة نسيب مفقودة ليست انجازاً عظيماً (يحسد عليه حماد) • علماً ان هذه الزيادة لا تظهر قدرة فائقة في الانتحال •

وهناك قصة اخرى (٢٧) يمكن الاستشهاد بها لتوضيح شخصية وخلق حماد هي : « قدم حماد الرواية على بلال بن ابي بردة (قاضي البصرة ١٠٣ - ١٢٦ هـ) وعند بلال ذو الرمة ، فاشده حماد شعراً مدحه به ، فقال بلال لذي الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيداً وليس له • قال فمن يقوله ؟ قال : لا ادري الا انه لم يقله ؟ فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازته ، قال له : ان لي اليك حاجة ؟ قال : هي مقضية ؟ قال : انت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا • قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيري ؟ قال : فمن اين علم ذو الرمة انه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام اهل الجاهلية من كلام اهل الاسلام » •

من هذه الروايات التمهيدية المميزة - سواء أكانت أصيلة أم مختلقة - نستطيع تكوين رأي ما عن حماد والمفضل ، اذ لا يوجد اى سبب ظاهر يدعونا الى الاعتقاد بان الشعر الذي جمعه المفضل قد افسده اختلاق حماد • ومن المسلم به ان مثل هذا الاعتقاد لا يعتمد على سبب قوي • وقل مثل ذلك في عهد حماد مثلاً نسوذجياً لحفظ الشعر العربي القديم قبل أن يصل ذلك الشعر وبصورة تدريجية الى درجة مضمونة

(٢٧) الاغانى ، ج ٦ ص ٨٨ ، ط • دار الكتب المصرية •

تسبباً من حيث الاصلة حين دون على ايدي جامعيه الاوائل .

وبالاضافة الى حماد فان هناك شخصية أخرى كثيراً ما يرد ذكرها في المصادر القديمة وقد وُصفت بأنها ذات اطلاع واسع بمصادر الشعر العربي القديم كما وصلت عن طريق الرواة . وهذه الشخصية ذاتها قد كرسَتْ نفسها لاختلاق الاشعار بأسلوب القدامى ذاته وكانت ترويهما على انها اشعار أصيلة . ذلك هو خلف الأحمر . ان أباه حيان فارسي من (فرغانة) وقد افتاده قتيبة بن مسلم سجينا عندما فتح العرب خوارزم سنة ٩٣ هـ . صار حيان بعد ذلك عبداً لبلال بن ابي بردة ، قاضي البصرة ، وقد تزوج فتاة عربية تنسب الى رهط مازن ، فرع من قبيلة تميم ، وقد اعتق سيده اما قبل زواجه او بعده وكان ميلاد خلف ثمرة ذلك الزواج .

ان تاريخ ولادته لم يدون ، ويتقد الدكتور ألفرد Dr. Ahlwardt (٢٨) انه حوالي سنة ١١٠ هـ او سنة ١١٥ هـ وهو تأريخ يجعله أصغر سناً من المفضل وحماد . لقد تلمذ خلف لاساتذة مدرسة البصرة الاوائل في دراسته النحو واللغة من امثال : عيسى بن عمر ، وابي عمرو بن العلاء وكان كحماد عالماً بلفات العرب ، واشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم وعاداتهم . وكان خلف حليفاً مقرباً للاصمعي في هذه الدراسة . ولكن خلفاً بالاضافة الى كونه رواية ، وناقداً ، كان نفسه شاعراً ، بينما لم يكن الاصمعي كذلك . وقد تبوأ خلف المنزلة نفسها في البصرة ، كعالم في الشعر العربي القديم وحجة في ايام العرب المنزلة نفسها التي كان قد تبوأها حماد في الكوفة ، لاشك ان المنافسة بين تينك المنزلتين العليتين قد قادت بصورة طبيعية الى اختلاق الاخبار والروايات التي كانت مدعاة للطعن في اصالة كل منهما ، وكما اتهم حماد بالفساد والاختلاق كذلك اتهم خلف . وفي مناسبة ما ،

(٢٨) قصيدة خلف الاحمر ، ص ١٩ .
Chalef Elahmar's Qasside, P. 19.

روى ان خلفاً كان قد زار الكوفة ، يوم كانت المركز الرئيس لجسج الشعر العربي القديم ، من اجل ان يزيد فى محفوظاته للشعر القديم وقد وجد العلماء فيها غير راغبين بتزويده بقطع الشعر التى يحفظونها ، وقد زعم ، انه بالمقابل لذلك ، قد زود علماء الكوفة الاعلام بعدد من القصائد المنتحلة (المختلقة بوساطته) على أنها أعمال شعرية أصيلة للقدامى ، وقد اخذ بالمقابل لذلك عدداً مساوياً من قصائد القدامى الاصيله للعصر الجاهلي . وبعد ذلك فقد قيل ان خلفاً صار تقياً يقرأ القرآن كل يوم ، تائباً عن اختلاقه ، معترفاً للكوفيين بانه كان قد خدعهم ولكنهم - كما تستمر الرواية - رفضوا اعترافه هذا واستمروا ينظرون الى القصائد المختلقة التى كان قد زودهم بها على انها اعمال شعرية اصيلة للعصر الجاهلي . ليس من الضروري تصديق كل تفاصيل هذه الرواية ولكننا ربما نستطيع قبول السمعة العلمية العامة التى تنسب الى خلف بشيء من الاطمئنان . ان بعضاً من شعره المقبول قد بقي . وله قصيدة طويلة تبلغ السبعين بيتاً كانت موضوع دراسة مفصلة قام بها الدكتور ألفرد Dr. Ahlwardt ونشرها سنة ١٨٥٩ ، انها والحق يقال عمل رائع ، وقد نظمت بأسلوب قديم رصين تحذو حذو قصائد الشعراء القدامى في أغراضها واسلوبها ولكنها رغم هذه المحاكاة ، فانها تنكس أصلها المحدث من خلال ما فيها من اشارات كثيرة وعبارات ذات دلالة زمنية . ولولا هذه الاشارات لما اخطأ قارئها بانها قصيدة قديمة (جاهلية) وان خلفاً نفسه ، كان يتصور انها كذلك .

واذا كانت قراءة كلمة « بغداد » = بغداد ، في البيت الثالث ، صحيحة فان تأريخ نظمه القصيدة لابد أن يعود الى ما بعد سنة ١٤٥ هـ وهي السنة التى أسست بها بغداد . وهناك لخلف قطعتان في موضوع وصف الافاعي والحيات ، (وهو الموضوع الذى يبدو ان خلفاً كان معجباً بتصويره) قد استشهد بهما الجاحظ في كتابه الحيوان . وفي حماسة ابي تمام (طبعة

فريتسك PP. 382-5 Freytag's Edition قصيدة مشهورة منسوبة
الى تأبط شرأ ولكنها كما يعتقد علماء الشعر العربي من شعر خلف * وان
المؤلف ذاته يتفق مع النقاد (بهذا الخصوص) على الرغم من ان بعض
الباحثين له آراء مختلفة في هذا الموضوع (٢٩) .

اما ما يتعلق بنسبة لامية الشنفرى المشهورة (٣٠) (انظر الملاحظات
في ص ٦٨) اليه فاذا صحت هذه النسبة وانه فعلا صاحب هذه القصيدة
الرائعة فانه حقاً لمعجزة .

وقد روي ان خلفاً قد توفي حوالي سنة ١٨٠ هـ أي بحدود عشر
سنوات بعد وفاة المفضل . وقد كان محط اعجاب وتقدير صديقه وتلميذه ،
الشاعر المشهور أبي نواس (التوفى سنة ١٩٠ هـ أو سنة ١٩٩ هـ) وقد رثاه بأكثر

(٢٩) انظر :

Prof. E. G. Browne, A Literary History of Persia, Vol.
I, P. 191. & R. A. Nicholson, A Literary History of the
Arabs, P. 97. & Journal of the Asiatic Society of Bengal,
1877, Part I pp. 455-6.

(٣٠) ان مؤلف هذه اللامية واحد من أهم الشخصيات الشعرية في
الأدب العربي القديم ، واذا صحت ان هذه اللامية هي للشنفرى (بدلالة
ورود اسمه في البيت رقم ٤٤ وهو :
فان تبتلس بالشنفرى أم قسطل

لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول

فانه يكون قد رسم صورة فنية رائعة لحياة البدوي في الصحراء
العربية بقيمه وواقعيته وهي قصيدة ذات صور شعرية رائعة لا تضير لها
عند غيره من الشعراء القدامى ولن يستطيع ان يجاريها أي شاعر آخر .
انظر ص ٦٨ من تعليقات لایل في النص الانكليزي . علما ان مكانة خلف
الاحمر بين علماء البصرة ونقاد الشعر العربي القديم مدعاة للاعجاب
والتقدير والثقة فقد ذكر لنا محمد بن سلام الجمحي مايلي : . اجتمع
اصحابنا انه (اي خلف بن حيان أبي محرز الاحمر) كان افرس الناس
ببيت شعر ، واصدقه لساناً ، كنا لا نبالي اذا أخذنا عنه خبراً او أنشدنا
شعراً ان لانسمعه من صاحبه !! انظر : طبقات فحول الشعراء ، دار المعارف
بمصر ، ١٩٥٢ ، ص ٢١ .

انه لمن الخطأ البين أن يعدّ هذين الرجلين (حماداً وخلفاً) مثالا نموذجيا للرواة المحترفين بالنسبة للشعر القبلي (البدوي) وكما مرت الإشارة ، فكلاهما فارسي ، ان رواة القبائل عرب صرحاء ، يختارون بوساطة الشعراء أنفسهم ليكونوا واسطة لحفظ تراثهم الشعري وخلوده في ذاكرة القبيلة خاصة ، والعرب عامة • وان المدونين وجامعي الشعر العربي القديم في القرنين الاول والثاني الهجريين قد جمعوا حصاد شعرهم عن طريق اولئك الرواة • ان اصدار حكم ، كما فعل أحد الباحثين المعاصرين ^(٣١) ، بان كل الشعر الموسوم بالشعر العربي الجاهلي موضوع ومتحل على أساس قصص رويت عن حماد وخلف وقد تقدمت أمثلة منها في هذه المقدمة ، يدعونا الى تكوين رأي مناقض تماما لكل الاحتمالات التي يتضمنها مثل هذا الرأي • ان كلا من حماد وخلف مقلدان لاسلوب شعري ثابت الأساس لحقبة طويلة قبل الدعوة الاسلامية ، وقد نظم فيه شعراء كثيرون من الذين كانوا وثنيين أو غير مسلمين في حياة محمد ، ثم اسلموا بعد ذلك ، وقد نظموا شعرا كثيرا وكان قسم منه قد دون ^(٣٢) فعلا من

(٣١) انظر :

Prof. D. S. Margoliouth in the Journal of the Royal Asiatic Society, 1916, P. 397.

ومقالته الموسومة بـ « محمد » في :

Hastings's Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. VIII, P. 874.

ان البرفيسور ماركليوث في مقالته « محمد » سنة ١٩٠٥ ، ص ٦٠ أصدر حكما غريبا عندما قال : « ان الشعر الجاهلي في جملته مختلف موضوع يحذو حذو اسلوب القرآن • »

(٣٢) والدليل على ان الرواة المسلمين كانوا يدونون ما يملئ عليهم

من الشعر ما يروى في النقائض (انظر : نقائض جرير والفرزدق تج : بيقان ، لندن ، ١٩٠٥ ، ج ١ ، ص ٤٣٠ ، سط - ١٢ : واليك هذه الرواية :

قبل شعراء القرن الاول الهجري (من أمثال جرير ، الفرزدق ، الاخطل ،
وذو الرمة ، والانسارة الى هؤلاء ، فقط هي بسبب كثرة اتاجهم الشعري) .
ان سلسلة الرواية سليمة ، وان آخر طبقة من الشعراء كانوا قد
عاشوا ونظموا الشعر في الوقت الذي كان فيه العلماء مشغولين بجمع الشعر
وتدوينه ، ويستبعد جداً أن تكون مسألة الانتحال قد ظهرت بالنسبة لهم ،
كما هي الحال بالنسبة لرواتهم الذين كانوا قد تعودوا كتابة القصائد المروية
لهم لنشرها والاحتفاظ بها . اما بالنسبة للشعر الجاهلي فمن الممكن جداً
أن يكون كل من حماد وخلف قد حاكي ذلك الشعر وقلده . بيد ان
حقيقة المحاكاة ذاتها تضمن وجود النص الاصلي (كي يحاكي ويقلد)
والدعوى التي تذهب الى اننا فقدنا النص الاصلي القديم واحتفظنا بنسخة
المحاكاة منه فقط فهي دعوى ، في مثل هذه الحالة ، تنفقر الى المتانة حتى
بالنسبة لرأي عامة الناس .

اما الذي يجب أن نستخلصه من الروايات التي قيلت في حماد
وخلف ، ليس هو ان القصائد التي وصلتنا على انها قديمة يجب ان ترفض
على أسس قديمة سابقة على انها موضوعة او مختلقة ، بقدر ما يجب علينا

« قال ابو عثمان : حدثني ابو عطار عن حسين راوية جرير قال :
لقي جرير الراعي فأخذ بيده واعتذر اليه الراعي ، فرأهما جندل بن الراعي
فأقبل فنتر يد أبيه من يد جرير ، فقال جرير وكانت فيه ' غنّة ' : أما والله
لأثقلن رواحك . ثم أقبل جرير الى منزله فقال للحسين راويته : زد في
دُهْن سراجك الليلة وأعدّ ألواحاً ودواة . قال : ثم أقبل على هجاء بني
نمير . قال فلم يزل حتى ورد عليه قوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فقال جرير للحسين راويته : حسبك اطفئ سراجك ونم فقد
فرغت منه (يعني قتلته) . قال : ثم ان جريراً أتم هذه القصيدة بعد .
قال : وكان جرير يسميها الدِّماغَة ويسميها الدهقانة . قال : وكان يسمى
هذه القافية المنصورة . قال وذلك لانه قال قصائد على قافيتها كلهن
أجاد فيها .

أن نفحصها وتدققها بامعان نظير مع كل الأدلة التي تعاصرت معها (تلك القصائد) وخصوصاً بالنسبة الى أغراضها ، أسلوبها ، وخصائصها الفردية ، لنرى بعد ذلك التدقيق والفحص اذا كانت موضوعه ، مضطربة في عدد أبياتها من حيث التقديم والتأخير ، او مختلفة مهما كانت وجهة النظر الخاصة بذلك . انا ، في المجموعة التي صنعها لنا المفضل (سواء أضاف إليها الاصمعي بعض القصائد أم لا) نفترض لأول وهلة أنها أصيلة نظراً لأن جامعها ثقة ، وخير بالشعر وناقد له ومعاصر ومناهض للمختلقين (الذين يخلقون الشعر من الرواة) بيد ان ذلك ، بطبيعة الحال ، لا يمنعنا من واجب اختبار وتدقيق كل قطعة وما يتعلق بنسبة شاعرها وعصرها ، وظروفها وطبيعة نصّها ، علماً اننا في مقدماتنا وملاحظاتنا الخاصة بهذه القصائد في ترجمتنا لها من (العربية الى الانكليزية) قد أرسينا محاولة قائمة على مثل تلك الاختبارات . فما هي النتيجة بعد ذلك اذن ؟ اننا نجد ان هذه المجموعة الموزعة على ست وعشرين ومئة قطعة ، عمل شعري ينسب الى سبعة وستين شاعراً ، من بينهم ستة شعراء فقط وهم (عميرة بن جمل ، جيهاء ، المرار ، السّفاح ، شبيب بن البرصاء وشاعر مجهول لم يذكر اسمه في المفضلية رقم ٣٧) قضوا حياتهم كلها في الاسلام ، وأربعة عشر شاعراً هم : عبدالله ابن غنمة ، وعبد بن الطيب ، أبو ذؤيب ، عمرو بن الأهتم ، مالك وتمام ابنا نويرة ، مقاس ، المخبل ، مزرد ، ربيعة بن مقروم ، سلامة بن جندل ، سويد بن أبي كاهل ، ثعلبة بن صُعير ، وزيان ، قد ولدوا وبلغوا رشدتهم في العصر الجاهلي ولكنهم قد أسلموا قبل وفاتهم .

وبقية السبعة والاربعين شاعراً قد عاشوا وماتوا في بيئة جاهلية (عصر قبل الاسلام) واثنان منهم على الاقل وهما : جابر بن حني (صاحب المفضلية رقم ٤٢) وعبد المسيح (صاحب المفضليات رقم ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٣) قد اعتنقا المسيحية . وكل القصائد الثماني التي تنسب الى شعراء القرن

الاول الهجري ، عدا القصيدة رقم ٣٧ ، هي شعر بدوي تصور لنا ان الحياة البدوية بالنسبة لهم هي نفسها قبل دعوة النبي محمد . أما القطعتان (رقم ١٤ ، ٣٣) فصور يومية سارة ، فالقطعة (١٤) تصور بستاناً من نخيل التمر والاحيرة (٣٣) تصور مغزى حلوب . ان قصيدتي عميرة (رقم ٦٣ ، ٦٤) تشبهان الى حد ما الشعر القديم الذي نظم في النزاع القبلي ، وان القطعة (رقم ٣٤) المنسوبة الى شبيب ربما كانت قد نظمت في أيام العصر الجاهلي في حين ان مرثية الصَّفَّاح ليحيى (رقم ٩٢) ذات صبغة اسلامية ، ولولا تلك الصبغة فان مثل تلك القصيدة لا يشك في انها صادرة عن رثاء جاهلي قديم ، وان القطعة الوحيدة ذات الاشارات المميزة لعصرها هي (رقم ١٦) وهي قصيدة طويلة تنسب الى المَرار . ان هذه القصيدة مؤلفة ، في الواقع ، من قصيدتين مستقلتين (من حيث البناء الفني) تسير على طريقة القصائد الجاهلية في قسمها الاول من (البيت ١ - ٥٢) وبخاصة تلك الايات التي تفخر بشجاعته كشاعر هجاء (من ٣٩ - ٤٥) ويتحدث في بلاط أحد الملوك (٣٩ ، ٤٣) كما كان يتحدث الشعراء في بلاط أمراء الحيرة في العصر الجاهلي والذين ماتوا وزالوا لعقود عديدة من الزمن (قبل عصر الشاعر المَرار) . أما القصيدة الثانية والتي تكمل الاولى ككل فتبدأ من (البيت ٥٣ - ٩٥) ومع انها تتبع اسلوباً جاهلياً في أوصافها لجمال الحبيبة ، الا انها في تفاصيلها وجزئياتها تذهب الى أبعد من أصولها الاولى ، ويمكن موازنتها بسهولة بشعر ذي الرمة وهو شاعر الصحراء . بيد انها تفتقر الى الخلقية والطابع البدويين الخاصين بالعصر القديم . ان هذه السلسلة من القصائد التي مرت بنا لا يتسرب الى أصلاتها وصحتها أدنى شك .

أما القسم الثاني من المفضليات فيضم قصائد الشعراء المخضرمين ، أو الشعراء الذين عاشوا قبل ظهور الاسلام أو بعده ، وتتماز بانها أكثر أهمية من غيرها علماً ان البحث في تباع أثر الروح الاسلامي فيها ليس بذي

جدوى • فان مستويات قيمها تشبه تماماً قيم العصر الجاهلي وان عدداً كبيراً من قصائد هذه المجموعة ، لاشك ، انه قد نظم قبل أن يعتنق شعراؤه الاسلام • ولكن هذا الحكم لا يمكن اطلاقه على كل هذه القصائد ، فالقصيدة (رقم ٢٦) قصيدة طويلة مؤلفة من واحد وثمانين بيتاً لعبدة او مرثية متمم لأخيه مالك (رقم ٧٧) يمكن تحديد تاريخ نظمهما • ان عبدة قد طور أقسام قصيدته على طراز القصيدة القديمة تماماً : المحبوبة التي فارقتها ، والناقة النجبية التي تحمله في رحلته ومقارنة سرعتها بثور الوحش الذي تروى قصة مطاردته مع كلاب الصيد بشيء من التفصيل والطول ، والغزوة المرتقبة منذ أمد طويل ، مع رفاقه وهم على ظهور الجمال يقودون أفراس الحرب الى جانبهم • ومن الملاحظ في هذه القصيدة ان الشاعر قد استشهد « بفضل الله وهبته » ليهبه ورفاقه غنيمة جديدة (البيت ٥٤ ، ٥٥) ويتبع ذلك وصف للحصان الذي يمتطيه للصيد ، وأخيراً يأتي موضوع طريف دونما اعتبار لتحذير القرآن ، وهو وصف لمجلس الشراب بأوان فارسية وذكر للقينة التي يبعث سحرها البهجة في نفوس الشارين (السامريين) • اما بالنسبة لمرثية متمم فان تحليلاً كاملاً قد ذكر في مقدمتها (٣٣) ولا حاجة بنا الى تكراره هنا ، انها مرثاة خالية تماماً من روح الاسلام علماً ان الشاعر وصاحب مرثاته قد اعتنقا الدين الجديد ، وان متمماً قد أكد على عمر ، وهو من الخلفاء العازمين بعد محمد ، على انصاف وتقدير ذكرى أخيه • لذلك فان هذه القصيدة مع غيرها من قصائد هذا القسم لا تخلو من اشارات واعتراقات وقيّة تدل على ان شعراءها كانوا قد هجروا الوثنية • وان كانت مثل تلك الاشارات خالية من الحماس تماماً • ولا أثر للتأمل الاسلامي فيها فالقيم العربية القديمة كالضيافة الفاخرة ، تدفق الغنائم والاموال ، واكرام لاصدقاء والموالين ، والتفاني في سبيل القبيلة ، والبسالة بالاحتفاظ بمجدها.

(٣٣) انظر مقدمة القصيدة (النص الانكليزي) ص ٢٠٦ - ص ٢٠٧ •

وسميتها والرغبة الشديدة في الساب والنهب تؤلف موضوعات المدح ،
وان هذه القصائد ترسم صورة مشرقة لمزينة الرجال الذين دعوا في
خلافة ابي بكر وعمر ، الى غزو الامبراطوريتين : البيزنطية والساسانية ،
وهي صورة تنسجم وحقائق التاريخ وتحمل بين طياتها دليل اصلتها من
خلال هذا الانسجام التاريخي التام .

ولو عدنا الآن الى السبعة والاربعين شاعراً من العصر الجاهلي والتي
تضم هذه المجموعة القسم الرئيس من اتاجهم الشعري ، فاننا نجد ان
غالبيتهم تعود الى الحقبة التي سبقت مباشرة ظهور محمد نبياً . وبعضهم
امثال : الجميح ، الحارث بن حلزة ، والحارث بن ظالم ، يعود الى قبل
مولد النبي محمد في العام الذي وقعت فيه حرب شيب جيلة حوالي

سنة ٥٧٠ م .

ان أقدم القصائد - اذا صحت أصلتها - لاشك تلك التي تنسب الى
شاعرين قديمين يدعوان : بالمرقس يتيمان الى الحقبة الزمنية التي وقعت
فيها حرب البسوس اذ من المحتمل جداً ان تكون في السنوات الاولى من
القرن السادس الميلادي . فهناك عشر قطع شعرية تنسب الى المرقش الاكبر
بالاضافة الى مقطوعتين (الثانية والثالثة في الملحق) وان هذه النماذج
الشعرية على أكبر الظن هي كل ما يستطيع ان يجمعه المفضل لهذا الشاعر
القديم . ومن المشكوك فيه جداً ان تكون هذه النماذج كلها للمرقش
الاكبر ، فهناك قطعة (رقم ٥٤) للاسباب التي ذكرت في مقدمتها (٣٤)
والملاحظات التي تبينها ، تبدو دون أدنى ريب من الشعر القديم . اما
بالنسبة للقطع الاخرى التي تنسب اليه : لا يوجد رأي ايجابي يمكن
التصريح به في هذا الخصوص ، فكلها مجرد مقطوعات كانت في زمن ما
نقصائد طويلة . والقطعة الموجزة (رقم ٣ في الملحق رقم ٣) تبدو بالتأكيد

(٣٤) انظر : ص ١٨١ .

قد نظمت في عصر متأخر • قد حشرت بوساطة بعض القصاصين الى قصة حب الشاعر • أما قصائد المرقش الاصغر (رقم ٥٥ الى ٥٩) فأحسن حفظاً من غيرها وتبدو انها من عمل يد اكثر اسجاءاً مع الاسلوب الشعري لجيل متأخر عن مثيلاتها من شعر خاله • لذلك لا يبدو هنا أي سبب يمنعا من قبول نسبة هذه القطع الخمس اليه ، والتي - كما مرت الاشارة الى ذلك (٣٥) - لا تتفق مع ما عرف عن الشاعر من بعض القصص والاساطير التي تروى عن علاقاته الغرامية • وهناك قصيدة قديمة أخرى لانشك في تأريخ نظمها بالضبط وهي قصيدة علقمة في مدح الملك الحارث الغساني (رقم ١١٩) حيث تحدث عن انتصار ذلك الامير في «عين أباغ» حين قتل فيها المنذر ملك الحيرة • ان هذه القصيدة ، بلا ريب ، عمل شعري أصيل من أعمال الشاعر بالاضافة الى قيمتها التاريخية المهمة • وزميلتها قصيدة الشاعر علقمة نفسه (رقم ١٢٠) فهي قصيدة أصيلة ايضا لا يتطرق اليها شك ذلك لان لقتها الغربية لا يمكن ان تكون من انتاج عصر متأخر •

ان كثيراً من هذه القصائد القديمة قد وصلت الينا مضطربة من حيث تسلسل أبياتها ، وذلك أمر طبيعي ، نظراً لانها لم تدون في عصرها ، بل كانت محفوظة عن طريق الرواية الشفهية • وقد وصلتنا عن طريق أجيال من الرواة ، علما ان مثل ذلك الاضطراب ووجود بعض الثغرات (في تقديم بعض الابيات على غيرها وبالعكس) يبعد عنها تماماً فرضية كونها متحلة او موضوعة •

ان عدة قصائد منها ، ذات نص موضوعي متسلسل مقبول ولكن قد أضيفت الى نهاياتها أبيات مستقلة لا تمت الى الوحدة الموضوعية للقصيدة بصلة ، يعتقد انها تعود الى القصائد الاصلية ، في الوقت الذي لا يوجد فيه مكن في القصائد ذاتها لمثل تلك الزيادات المنفصلة • ان هذه الظاهرة تعارض

(٣٥) انظر : مقدمة القصيدة رقم ٥٥ •

ايضا ومفهوم الاختلاق • من كل ذلك نخلص الى ان الانطباع الذي تركه دراسة مفصلة لهذه الآثار الشعرية القديمة هو انه يجب علينا قبول هذه القصائد بصورة عامة ، على انها انتاج أصيل للشعراء الذين تحمل تلك القصائد اسماءهم • أما الى أي مدى يمكن التأكد من صحة هذا الرأي ، فانه قد نوقش بالتفصيل في المقدمات والملاحظات التي أضيفت الى كل قصيدة بصورة خاصة ، فقد دقت واختبرت كل الحالات المشكوك في أصالتها وصحتها •

ان أهم خصوصية بارزة في الفن الشعري لهذه القصائد هي قوة تماسكها على بناء فني واحد يربطها جميعا • فان أغلب القصائد تبدأ بالنسب (عدا الرثاء) أو ذكر المرأة والحب ، آلام الفراق ، ذكر الاطلال المقفرة والتركيز على بعض المشاهد التصويرية لعدد معين من الحيوانات المألوفة في الصحراء ، كل هذه الخصائص لدليل واضح على ان هذا البناء الفني عريق وله أصول شعرية قديمة • ولعله من النادر جدا الاعتقاد بان هذه الخصائص الفنية كانت قد أثبتت وجودها في التأليف الشعري في شمال ووسط شبه الجزيرة العربية ، ان لم تكن قد سبقتها أجيال شعرية كثيرة • وما دونا نفتقر الى المادة الرئيسة لتكوين نظرية عن تطور الشعر العربي فبداياته قد فقدت في غيب التاريخ يوم كانت الكتابة غير مستعملة لتدونه لنا ، فاننا نستطيع تكوين فكرة عن قدم هذا البناء الشعري العربي من دراستنا لأدب الشعوب السامية المجاورة للعرب ، كالأدب العبراني المتمثل في العهد القديم • ففيه نجد وخاصة في مرثية داود لشاؤول Saul ويوناثان Jonathan قصيدة تشبه تماما مرثية عربية وكذلك الحال فان مشهد النصر لديبورا Deborah الذي سجل اندحار وموت سيسرا Sisera لا يخلو من تشابه قريب مع بعض القصائد الثمينة بين العرب (قارن ذلك بقصيدة رقم ١٢) • ولعل أقرب تشابه وتوافق بين

الشعر العبراني والعربي القديم يمكن ملاحظته في « كتاب أيوب Book of Job » ، ان مشهد تلك المأساة (الدراما) قد وقع في شمال شبه الجزيرة العربية وان شخوصها هم من العصر العربي ، وان المؤلف لإشيك يهودي ، ينتمي الى عصر ما قبل الخروج Post - exilic Period وهو رجل متحضر وذو ثقافة في كل من الشعر والأدب الديني وتأثر الى حد كبير بأفكار قومه . ان القضايا الفلسفية والدينية التي يعالجها تتعلق بالروح الانساني العلم ، ولكنه عندما ذهب الى شبه الجزيرة العربية من أجل مشهده وشخصياته ، يبدو ، أنه قد تأثر بالفعل الشعري الموجود وقتئذ في شبه الجزيرة العربية . فالعربي في قصائده الطوال يصور سرعة ناقته او حصانه بمقارنتها بسلسلة مختلفة من الحيوانات المألوفة في الصحراء والتي صور لنا عاداتها عن كذب ، ووصفها لنا بدقة تدل على قدرة ومعرفة واسعة . وقد تخدم الصور ذاتها في بعض الأحيان هدفا آخر كما هي الحال في قصيدة أبي ذؤيب الرائعة والتي تنتهي بها مجموعة المفضليات . وهذه الحيوانات هي : الثور الوحشي ، الحمار الوحشي ، النعامة والصقر وفي بعض الأحيان الوعل الوحشي حين يرد ذكره عند الإشارة الى ذرى الجبال ومنحدراتها . ولو عدنا الى كتاب أيوب (٣٦)

(٣٦) يقول الاصحاح التاسع والثلاثون / أيوب / ص ٨٢٩ ، ٨٣٠ / الكتاب المقدس / بيروت / ١٩٦٢ :

« أتعرف وقت ولادة وعول الصخور او تلاحظ مخاض الأيائل .
أتحسب الشهور التي تكملها او تعلم ميقات ولادتهن . يبركن ويضعن
أولادهن . يدفعن أوجاعهن . تبلغ أولادهن . تربو في البرية . تخرج
ولا تعود اليهن .

من سرح الفراء حراً ومن فك ربط حمار الوحش . الذي جعلت
البرية بيته والسباح مسكنه . يضحك على جمهور القرية ، لا يسمع زجر
السائق . دائرة الجبال مرعاه وعلى كل خضرة يفتش .
أيرضى الثور الوحشي ان يخلعك أم يبني بيت عند معلفك
الثور الوحشي برباطه . .

(الاصحاح ٣٩) لوجدنا ذكرا للحيوانات ذاتها التي مرت بنا على انها نماذج كاملة من خلق الله تدل على عظمته الرائعة ان مؤلف كتاب أيوب يخلع على صورته لهذه المخلوقات صفة المثالية الى حد ما ، كما يفعل في وصفه لفرس البحر Hippopotamus والتمساح ، أما عندما يصف النعامة فانه لا يصل في وصفها الى دقة الشاعر العربي ولكنه في اختياره لمثل هذه الاوصاف لحيوان الصحراء ، كما فعل الشاعر العربي بعد ثمانية او تسعة قرون لاحقة من ذلك التاريخ يقودنا الى التلميح والاشارة الى أنه في عصر مؤلف كتاب أيوب أي ربما في القرن الخامس او الرابع قبل الميلاد ، كان هناك في شبه الجزيرة العربية بعض المستوى من الفن الشعري الذي كان يعالج الموضوعات ذاتها المتعلقة بحياة الحيوان وبالاسلوب التصويري نفسه والذي يجسده لنا الشعر العربي في القرنين السادس والسابع الميلاديين •

وإذا كنا لا نستطيع ان ننفذ الى غياهب الماضي التي تحجب عنا أصول الشعر العربي القديم بقدر ما يتعلق الامر بموضوعاته واغراضه ، فانه يستحيل علينا تماما اصدار أي حكم تاريخي فيما يتعلق بشكله - بنظامه العروضي - وهنا ايضا فان كمال نظامه العروضي ، لدليل آخر على ان هذا الشعر كان قد ولد لحقبة طويلة من الزمن وقد تطور عبر أجيال عديدة • ان النظام العروضي لا علاقة له بالنظام العروضي العبري والآرامي فان أغلب القطع الشعرية التي بين أيدينا تعكس لنا في أغلب الاحيان الاوزان والبحور نفسها التي نظمت بها النماذج المتأخرة منه •

جناح النعامة يرفرف ...
هل أنت تعطي الفرس قوته وتكسو عنقه عرفاً • أتوثبه كجرادة •
- أمن فهمك يستقل العقاب وينشر جناحيه نحو الجنوب • أو بامرك
يخلق النسر ويعلي وكره • يسكن الصخر ويبيت على سن الصخر والمقل •
من هناك يتحسس قوته • تبصره عيناه من بعيد • فراخه تحسو الدم
وحيثما تكن القتل فهناك هو • •

ومن الواضح جداً أننا نجد هنا وهناك بعض الاشارات التي تدل على حقب زمنية متباعدة . فأول قصيدة في ديوان عبيد (٧٧) وقصيدة امرئ القيس (رقم ٥٥) (٣٨) قد نظمتهما في بحر لم يدركه العروضيون المتأخرون ولا يوجد مثال آخر على مثل هذا البحر . وان قصيدة المرقش الاكبر القديمة (رقم ٤٩) والتي مرت الاشارة اليها ، تمثل بحراً شاذاً لدرجة ان من جاء بعده من الشعراء لم يستطيع تقليده . كما وان النقاد المتأخرين قد اتهموه بالخطأ وعدوا هذه القصيدة خارجة على النظام العروضي ، علماً أننا نجد في البحر الطويل عند امرئ القيس بعض الحالات الشاذة او الخروج على القياس العروضي الذي بدأ يختفي من قصائد الشعراء المتأخرين . كل هذه الامثلة اشارات لحركة وتطور النظام العروضي ، والتي تنفي بدورها الفرضية القائلة ان العروض العربي قد وجد متكامل في نظام القطعة الشعرية ولكتنا لا نعرف أي شيء عن مخترعي البحر الطويل المذكور ، والبسيط ذي الابقاع المعروف (ذي الرنة الخاصة) ، والاوزان الجميلة الاخرى في شبه

(٣٧) ديوان عبيد بن الابرص ، تحقيق : لایل ، ص ٥-١١ .
القصيدة الاولى في ديوان عبيد هي :

أقفر من أهلي ملحوب^١ فالقطبيات فالذنوب^٢

عندما ابن قتيبة من المعلقات السبع وقد نشرت ضمن القصائد العشر بشرح التبريزي . لهذه القصيدة قراءات كثيرة وان بحرهما هو مجزوء البسيط . ونظراً لندرة هذا البحر وعدم شيوعه في الشعر القديم قد أدى الى وجود مثل هذه القراءات المختلفة (الزيادات في النص) وقد صرح بعض النقاد القدامى بان بحرهما شاذ لدرجة ان هذه القصيدة لا يمكن عدّها فيها من الشعر . وقد عبّر صاحب جمهرة أشعار العرب ، القرشي ، عن رأيه فيها فقال : « لكثرة ما دخلها من الزحاف والقطع كادت ان تكون شعراً » وقد استشهد ابن سيده في المحكم نقلاً عن الخليل بان هذه القصيدة « مثال لشعر مهزول غير مؤلف البناء » .

(٣٨) الفرد ، العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين ، لندن ، ١٨٧٠ ، قصيدة امرئ القيس ، رقم - ٥٥ .

الجزيرة العربية ، أكثر من معرفتنا بأولئك الذين اخترعوا « البحر
السداسي » اليوناني - السداسي التفاعيل Hexameter وشبه بذلك ما
يتعلق باللغة (لغة الشعر العربي) : فمن الحقائق المعروفة جدا ان هناك
فروقا لهجية وصوتية في شبه الجزيرة العربية في عصورها الكلاسيكية
القديمة ، كما هي الحال في العربية التي تكلم بها اليوم أجزاء مختلفة من
شبه الجزيرة العربية والاقليم المجاورة لها فالفروق اللهجية تظهر في الشعر
أحيانا عما يتطرق بقبيلة طي ، ومع ان مدى تلك الفروق يبدو ضئيلا ، فان
لغة الشعر واحدة في كل أرجاء شبه الجزيرة . فالثروة اللفظية الهائلة
للشعر القديم والعدد الكبير من المرادفات ، لابد ان تكون قد نمت وانصهرت
واتحدت في لغة أدبية واحدة من عموم الالفاظ القبلية كما تظهر في البناء
الشعري للمقصيدة العربية القديمة . واذا كان هذا النمو والاتحاد قد حدث
فعلا ، فان هذه العملية اللغوية قد استغرقت وقتا طويلا وصاحبتها حركة
جادة عامة في بناء الشعر بواسطة أولئك الذين وضعوا لنا اسس نظامه وهنا
ثانية نجد تناظرا او تشابها جزئيا بين لغة القصيدة العربية القديمة ولهجة
الملحمة اليونانية The Epic dialect of Greek • **والحقيقة ان**
الشعراء هم الذين وضعوا اللغة الادبية العربية وليس القرآن
فان لغة القرآن الكريم كما هي في شكلها المعروف ، كانت عموما
لغة اقليم مكة ، وانها تتضمن صيفا لغوية لا نظير لها في شعر الشعراء ولا
في نثرهم الدام . لذلك لابد من وجود اساس من الصحة ، كما يبدو ، في
بعض القصص والاساطير التي تروى لنا المنافسات السنوية بين الشعراء في
المهرجانات التي كانت تعقد في الاسواق الادبية المجاورة لمكة خلال الاشهر
الحرم . فان تطور الدوافع والطرق واتساع آفاق لغة الشعر قد تبلورت في
اتجاه مدرسة بدأت تنمو بهذه الطريقة .

ان المجموعة التي صنعها المفضل قد رتبت كاملة بحوالي خمسين عاما
قبل حماسة أبي تمام ، وهي المجموعة المنافسة لها والتي سبقت المفضليات في

في شهرتها • فالحماسة قد وصفها العلماء العرب بأنها مجموعة مقطعات
Fragments في حين وصفت المفضليات بأنها مجموعة قصائد (Odes)
وان هذا الفرق ليوضح لنا الشعبية والرواج الذي احرزته الحماسة ؛ ففيها
كانت المقطعات تعد جواهر مختارة مشذبة ومهذبة من الابيات الشعرية
الضعيفة وغير الضرورية ، ويبدو أن جامعها - ابا تمام - قد هياها لتلك
الصورة وقد قيل فيه انه في جمعه لديوان الحماسة اشعر منه في شعره ،
على الرغم من ان الحماسة كانت من بين الآثار المشهورة في عصر الشاعر
أبي تمام • أما في المفضليات فنجد الابيات القوية والضعيفة مجتمعة سوية ،
والابيات المبتورة والناقصة من آثار القرون القديمة ليست بأقل أهمية من
الابيات الرائعة التي خلدت تلك القصائد • فالفضل أعطانا كل ما يستطيع
الثور عليه لقصيدة من القصائد القديمة ، مع أنه في بعض الأحيان يتعذر -
عليه كثيراً اصلاح أبياتها ، اذ نستطيع في ضوء هذه القصائد الشعرية فضلاً
عن مجموعة أبي تمام الرائعة ، تقدير المستوى العام للإنتاج الشعري الذي
يلغى أولئك الشعراء ، وسبر أغوار أفكارهم ونظرتهم الى الحياة التي صورت
عصرهم • فقد وصف العلماء الأوائل الشعر العربي القديم « بانه ديوان
العرب » ووصفه محمد بن سلام الجمحي (المتوفى حوالي ٢٣١ هـ) ،
صاحب كتاب طبقات الشعراء : « كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان
علمهم ومنتهى حكمتهم : به يأخذون ، واليه ينتهون » . (٣٩)

ان دارس الشعر العربي القديم يجدر به ، في الوقت ذاته ، دراسة
الوثائق التاريخية التي تضمنها كتاب الاغاني والذي يؤلف الحجر الاساس
في كتاب أم • كوسين دي بيرسيغال M. Caussin de Perceval الموسوم
بـ (مقالات في تاريخ العرب قبل الاسلام)
"Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme".

(٣٩) انظر : المزهر ، السيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

وهو عمل لم يضاهى بعد ، رغم انه يتطلب اعادة كتابته . وفي نهاية المجلد الاول من كتاب « الكامل فى التاريخ » طبعة تورنبرك (Tornberg's Ed.) لابن الاثير ملخص لكتاب « ايام العرب » لابي عبيدة ، وهو ذو فائدة فى هذا المجال . وكتاب « المقد الفريد » لابن عبد ربه (وقد طبع عدة مرات فى مصر) يتضمن ايضا مادة فى الموضوع نفسه . وفي شرح « نقاض جرير والفرزدق » (طبعة أي . أي بيغن (ed., A. A. Bevan) روايات طويلة عن احداث نوهت بها القصائد ، والتي هي على وجه العموم اكثر كمالا وتسلسلا من أي مصدر آخر ، بيد انها لاتشمل كل جوانب الحياة العربية فى عصر ما قبل الاسلام ، وقد يستفيد (الدارس بالرجوع الى كتاب يوليس فلهاوزن Julius Wellhausen الموسوم بـ

Reste Arabischen Heidenthums

(الطبعة الثانية ، ١٨٩٧) وقد يجد مادة مفيدة فى كتاب جورج جيكونب Georg Jacob الموسوم بـ Beduinenleben برلين ، ١٨٩٥) وكذلك الحال . مقالات اگنر گولدزيهر Ignaz Goldziher فى كتابه (دراسات اسلامية Muhammedanische Studien) ولكن افضل شروح النعمر البدوي القديم هو كتاب « رحلات فى الصحراء العربية » لمؤلفه سي . م . داوثي C. M. Doughty "Travels in Arabia Deserta"

(فى مجلدين كمر دج ، ١٨٨٨) وقد استغرقت رواية هذا الكتاب اكثر من سنة ونصف السنة (١٨٧٦ - ١٨٧٨) قضاها المؤلف عبر علاقات وثيقة وصداقة حميمة وتجووال وسفرات مع البدو بالاضافة الى استقراره فى بعض المدن المهمة كالمدائن ، صالح ، تباء ، خير ، حائل ، بريدة ، عنيزة ، والطائف . وان الحياة العربية القديمة تبدو وكأنها لم تتغير لدرجة ان اسلوب حياة البدوي المماصر يشبه الى حد كبير حياة أسلافه من العرب قبل أربعة عشر قرناً خلت ، فى السلوك ، والعادات ، والقيم الاخلاقية والاجتماعية .

وان قارىء كتاب « الصحراء العربية Arabia Deserta » غالبا ما ينبه في كل صفحة تقريبا الى عبارة او فكرة متعلقة بالشعر العربي القديم والذي سلط المؤلف عليه كثيراً من الضوء من خلال عرضه ووصفه للحياة البدوية في كتابه هذا ، وهناك كتاب آخر في الموضوع ذاته ولكنه اقل اتصالا بما يتعلق بحياة البدو ، هو كتاب «تبوك» ليوليوس ايوتنك -

(Julius Euting - Tagbuch

وقد ظهر الجزء الاول منه سنة ١٨١٦ والجزء الثاني سنة ١٩١٤ وقد سلك الطريق ذاتها التي سلكها داوتي Doughty من دمشق الى حائل عبر الجوف ومن حائل الى مدائن صالح ، تيماء ، والعلا ، واخيرا الى الساحل في الوجه) •

وللرحلة التي قام بها المرحوم البروفسور روبرتسن سمث Prof. Robertson Smith عام ١٨٨٠ من جدة الى الطائف والامكن المجاورة لها ، أهمية واعتبار ، وقد ضمن مشاهداته في تلك الرحلة في كتابه الموسوم بـ « محاضرات ومقالات Lectures and Essays تحت عنوان «رحلة الى الحجاز» (A Journey in the Hejaz) ان الترجمة التي تضمنها هذا المجلد (ترجمة المفضليات) هي في الغالب ثرية واقرب الى روح النص العربي الاصيل بقدر الامكان وخصوصا بالتركيز والاحتفاظ بمصطلحات اللغة الانكليزية • وان اولئك المطلعين على لغة القصائد العربية القديمة يدركون تماما انها تشتمل على عدد كبير من الالفاظ التي يشك في معناها الحقيقي لذلك فهي غير معروفة حتى بالنسبة للعلماء العرب انفسهم لذلك فعندما ترجمتها الى الانكليزية اخذت بعين الاعتبار المعنى التقريبي لها في الترجمة • ان المترجم على علم تام بانه في ترجماته لا يوجد حتى ولو بصورة جزئية اي اعتبار الى اختلاف الاراء والقراءات ، فعندما يكون الاختيار ذا أهمية ، فانه يختار الذي

يبدوله متفقا تماما مع روح النص الاصيل وحالته • وان الملاحظات المذكورة تبين المواطن التي اختلف بها المترجم عن آراء ووجهات نظر الشارحين مع بيان سبب ذلك الاختلاف •

ان عدداً معيناً من هذه القصائد (هو اثنتان وعشرون فقط) قد ترجمت شعراً •

اما بقية القصائد عدا قصيدتين (رقم ٣٢) (رقم ٤٤) فقد ترجمت الى الانكليزية بوزن مقارب الى وزنها الاصيل • والاسس التي سرنا عليها في هذه الترجمة قد شرحت في مقدمة كتابنا الموسوم بـ « ترجمات من الشعر العربي القديم :

“Translations of Ancient Arabian Poetry

والذي نشر سنة ١٨٨٥ • وفي هذا الكتاب كنا قد بينا أن أجمل البحور القديمة هو البحر الطويل ، وقد ظهر في الشعر الانكليزي في قصيدة براونتك Browning المعنونة بـ “Abt Vogler” ونستطيع ان نضيف هنا أيضا ان ايقاعاً شبيهاً بالبحر البسيط قد ظهر كذلك في القصيدة ذاتها •

والمترجم كان قد وجد ان الجمع بين هذين البحرين (الطويل والبسيط) يخلق ايقاعاً وزنيا في اللغة الانكليزية ، ذلك الايقاع الذي يبدو له شكلا مناسباً للتعبير عن اللغة العربية الشعرية في اللغة الانكليزية وفي بعض الحالات فان ايقاعاً مترجماً ومزدوجاً “Mixed Rhythm” من هذا القبيل قد تبنته الترجمة بدلا من البحر الطويل الخالص والبسيط الخالص ، وحتى في حالة كون القسم الاعظم من الترجمة هو في واحد من هذين البحرين (الطويل والبسيط) فان بعض التغيرات التي تقتضيها المناسبة قد تتطلب زيادة بيت على اخر •

وفيما يلي قائمة بأرقام القصائد التي ترجمت شعراً الى اللغة

الانكليزية (مع الاحتفاظ بوزنها) :

الطويل البسيط	مزيج من الطويل والبسيط	الطويل الكامل	المقارب	الخفيفة
٢٠	٢٢	١	١١٧	قصيدة رقم
٣٠	٣٢	٢	٣ (في الملحق)	
٣٣	٤٣	٣١		
٤١	٤٤	٢ (في الملحق)		
٤٢	٨٠			
٥٥				
٦٥				
٦٧				
١١٩				